كتاب أسرار الصلاة

لابن القيم

اللقاء الأول

إن من نعم الله التي أنعم بها على عباده، لينالوا بها المنزلة العالية عنده سبحانه والقربة إليه – جل جلاله – نعمة عظيمة، هي صلة بين العبد وربه، وخلوة يناجي بها العبد خالقه، يُفضي إليه فيها بتوبته، ويقر بخطيئته، ويسكب دمعته ليخرج منها طاهراً مطهراً من الذنوب.

الصَّلاةُ أهمُّ أَركانِ الإسلامِ بَعدَ الشَّهادتَينِ، قال –ﷺ–: " إن أولَ ما يحاسبُ به العبدُ بصلاتِه، فإن صَلَحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدتْ فقد خاب وخسِرَ" صحيح النسائي

قال –ﷺ–:"أوَّلُ ما يحاسَبُ بِهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصلاةُ، فإنْ صلَحَتْ صلَح له سائرُ عملِهِ، وإنْ فسَدَتْ، فَسَدَ سائرُ عملِهِ" .صحيح الجامع

إنَّ الصَّلاة المقبولة عند الله هي الَّتي يؤدِّيها المسلم في وقتِها بخشوع، حضور القلْب مع التلاوة والاستِماع، والركوع والسجود؛ لأنَّ المصلِّيَ في لقاء مع الله يتذوَّق هذا الاتِّصال الروحيَّ بخالقه، ويتلذَّذ بحلاوته، وهذا لا يتأتى إلا بعلم ودراية وإدراك لأسرار الصلاة لذلك اخترنا هذا الكتاب القيم لابن القيم رحمه الله تعالى ففيه علم غزير وخير كثير نسأل الله أن ينفعنا به ويعيننا على العمل ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، ويجعل أعمالنا صالحة ولوجهه خالصة، ويكتب الثواب العظيم للعلامة ابن قيم رفع الله درجته في عليين ووالديه وجميع المسلمين.

ربِّ يسّر وأعن يا كريم

قال الإمام محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية رحمه الله تعالى

فصل

في الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصلاة والقرآن، وبيان أنَّ أحد الذوقين مباين للآخر من كل وجه، وأنه كلَّما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه.

الصلاة قرة عيون المحبين وهدية الله للمؤمنين

فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة قرة عُيون المحبين، ولذة أرواح الموحدين، وبستان العابدين ولذة نفوس الخاشعين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمةُ الله المهداة إلى عباده المؤمنين.

ولا شك أن الصلاة قرة عيون المحبين فهذا هو ما قاله الصادق الأمين -ﷺ-: "وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ". البيهقي، وهذا بيانٌ لعظيمِ محبَّتِه لها؛ وذلكَ لِما فيها مِن القُرْبِ مِن المولَى عزَّ وجلَّ؛ فلا شيءَ يُسعِدُه ويُدخِلُ عليه السُّرورَ بمِثْلِ ما تُدخِلُ عليه الصَّلاةُ؛ فقُرَّةُ العينِ يُعبَّرُ بها عنِ المسرَّةِ ورؤيةِ ما يُحِبُّه الإنسانُ. الدرر السنية

الصلاة لها لذة وطعم قال -ﷺ-: " ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا". صحيح مسلم، الصلاة إيمان قال عز وجل: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ). الإيمانُ له أسرارٌ عَجيبةٌ، وله حَلاوةٌ وطَعمٌ يُذاقُ بالقُلوبِ، كما تُذاقُ حَلاوةُ الطَّعامِ والشَّرابِ بالفمِ، ولكن لا يُدرِكُها إلَّا مَنِ امتلأ صَدرُه به، وخالطَت بَشاشتُه قَلبَه، فالقلبُ إذا سَلِمَ من أمراضِ الأهواءِ المضِلَّةِ والشَّهواتِ المحرَّمةِ، وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ. وجَدَ وأدرَكَ حَلاوتَه ولَذَّتَه، وهي ما يَجِدُه المؤمِنُ منَ انشراحِ الصَّدرِ والأُنسِ بمَعرفةِ اللهِ تَعالَى ومَحبَّتِه، ومَحبَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَعرفةِ نِعمةِ اللهِ عليه باصطِفائه وجَعلِه مُسلِمًا من أُمَّةِ خيرِ المرسَلينَ. الدرر السنية

قال ابن القيم : هداهم إليها، وعرَّفهم بها، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين، رحمة بهم، وإكراما لهم، لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه لا لحاجة منه إليهم، بل منَّة منه، وتفضَّلا عليهم، وتعبَّد بها قلوبهم وجوارحهم جميعا، وجعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظمهما؛ وهو إقباله على ربِّه سبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعمه بحبه، وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميله حقوق حقوق عبوديته ظاهرا وباطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه.

ولما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة وأشباهها من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيأ له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخلع والعطايا، ودعاه إليها كل يوم خمس مرَّات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة، لذة ومنفعة ومصلحة ووقار لهذا العبد، الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر، لتكمل لذة عبده في كل من ألوان العبودية ويُكرمه بكلِّ صنفٍ من أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مُكفّرا لمذموم كان يكرهه بإزائه، ويثيبه عليه نورا خاصا، فإن الصلاة نور وقوة في قلبه وجوارحه وسعة في رزقه، ومحبة في العباد له، وإن الملائكة لتفرح وكذلك بقاع الأرض، وجبالها وأشجارها، وأنهارها تكون له نورا وثوابا خاصا يوم لقائه.

عن قتادة في قوله: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ) قال: بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعه من السماء التي كان يرفع فيها عمله.

كما أن العاصي يدعوا عليه الجماد والحيوان وكل شيء، لأنه يأتي بالهلاك للعباد والبلاد، قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ، وَأُمْسِكَ الْمَطَرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤْمِ مَعْصِيَةِ ابْنِ آدَمَ. فهذا الذي لا يصلي بلاء على نفسه، وعلى غيره، فهل هناك معصية أعظم من قطع الصلة بالله، والاستكبار عن أمره في إقامة الصلاة، فهذا وأمثاله يستجلب بهم البلاء والشقاء والوباء وقلة الأرزاق، وشح الأمطار، وموت الحيوان والنبات، وكثرة الأمراض، نعوذ بالله من هذا كله...

فيصدر المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه، وخلع عليه بخلع القبول، وأغناه، وذلك أن قلبه كان قبل أن يأتي هذه المأدبة، قد ناله من الجوع والقحط والجذب والظمأ والعري والسقم ما ناله، فصدر من عنده وقد أغناه وأعطاه من الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه.

شبه ابن القيم الصلاة بمأدبة الطعام الحقيقة التي يشبع العبد منها حاجاته فيسكن جوعه، ويروي عطشه، وكما أن الأبدان تموت بدون غذاء، فالأرواح والقلوب أشد حاجة لقوتها وغذائها، فموت الأرواح مصيبة أعظم من موت الأبدان، فيقوم من مأدبة الصلاة ومعه المحبة والرجاء والخوف والاستعانة والتوكل ...وغيرها من أغذية الروح، فتشفى آلامه، وتكسى عوراته، ويرتوي حتى تفيض مشاعره بالذل والانكسار والخضوع والانقياد.....

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الصلاة قوت القلب كما أن الغذاء قوت الجسد فإذا كان الجسد لا يتغذّى باليسير من الأكل فالقلب لا يقتات بالنقر في الصلاة.

تشبيه القلب بالأرض

قال ابن القيم: ولما كانت الجدُوب متتابعة على القلوب، وقحطُ النفوس متواليا عليها، جدّد له الدعوة آلة هذه المأدبة وقتا بعد وقت رحمة منه به، فلا يزال مُستسقيا، طالبا إلى من بيده غيثُ القلوب، وسَقيُها مستمطرا سحائب رحمته لئلا يَيبس ما أنبتته له تلك الرحمة من نبات الإيمان، وكلأ الإحسان وعُشبه وثماره، ولئلا تنقطع مادة النبات من الروح والقلب، فلا يزال القلب في استسقاء واستمطار هكذا دائما، يشكو إلى ربه جدبه، وقحطه، وضرورته إلى سُقيا رحمته، وغيث برّه، فهذا دأب العبد أيام حياته.

فالقحط الذي ينزل بالقلب هو الغفلة، فالغفلة هي قحط القلوب وجدبها، وما دام العبد في ذكر الله والإقبال عليه فغيث الرحمة ينزل عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة، فإذا تمكَّنت الغفلة منه، واستحكمت صارت أرضه خرابا ميتة، وسنته جرداء يابسة، وحريق الشهوات يعمل فيها من كل جانب كالسَّمائم.

فالغفلة مِن أخطر الأمراض التي تصيب القلب؛ ولذلك ذكر أهل العلم أن أول منازل السير إلى الله -عز وجل- الانتباه من رقدة الغفلة، فإذا تيقظ القلب ابتدأ الإنسان طريق سيره إلى الله وهو على رجاء الوصول لأعلى منازل العباد، أما إذا ظل في غفلته فلن يبرح مكانه!

والغفلة تكون عن ذكر الله -عز وجل- ومعرفته بأسمائه وصفاته، ومحبته ولذة القرب منه وعبادته، كما في قول الله -تعالى-: (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف:28].

وكذلك تكون عن الموت وما بعده، واليوم الآخر وما فيه، ثم المصير إما إلى جنة أبدًا أو نار أبدًا، كما في قوله -تعالى-: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء:1]، وقوله -تعالى-: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [مريم:39].

من أعظم أسباب الغفلة تعلُّق القلب بالدنيا ومخالطة الغافلين؛ فلا تكاد تجد مَن يخالط الناس ذاكرًا إلا مَن منَّ الله –عز وجل– عليه بأن جعله داعيًا مذكِّرًا هاديًا مهديًا، وإلا فتعلق القلب بالدنيا، وفضول مخالطة الناس، وغيرها من أسباب الغفلة؛ تكون أمام القلب كالحواجز تستر عنه حقائق الإيمان، فهو مع إيمانه إلا أنه لا يستحضر هذه الحقائق، فهو مثلاً يصدق بالملائكة، ولكنه لا يستشعر على الدوام أنه معه ملكان كريمان يكتبان أعماله: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق:18). ولا يستحضر أن هذه المخلوقات الكريمة تحضر مجالس الذكر؛ فلا تجده حريصًا على حضورها، مع حرصه على حضور المؤتمرات والندوات التي يحضرها مشاهير البشر! انشغاله في الدنيا يضعف محبة الله ورسوله –ﷺ– في قلبه، ومع انشغاله بقصص المشاهير والإكثار مِن قراءتها فينجذب قلبه إلى حبهم! فيتبع الهوى ويفرط في الحقوق والواجبات ويرتكب المحرمات، وكل هذا بسبب غفلته...

قال ابن القيم: فتصير أرضه بورا بعد أن كانت مخصبة بأنواع النبات، والثمار وغيرها، وإذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت أرض إيمانه وأعماله وربت، وأنبتت من كلِّ زوج بهيج، فإذا ناله القحط والجدب كان بمنزلة شجرة رطوبتها وخضرتها ولينها وثمارها من الماء، فإذا منعت من الماء يبسَت عروقها وذبلت أغصانها، وحُبست ثمارها، وربما يبست الأغصان والشجرة، فإذا مددت منها غصنا إلى نفسك لم يمتد، ولم ينْقَد لك، وانكسر، فحينئذ تقتضي حِكمة قيِّم البستان قَطع تلك الشجرة وجعلَها وقودا للنار.

الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان. تقتل مادة الحياة فيقسوا كل شيء، وينفر من ذكر الله والعياذ بالله، والكلام عن الحلال والحرام، فالحلال والحرام ما وافق هواه، ولا يلين إلا بنار تحرق قسوة قلبه، وتدفعه لباب الله دفعاً، فينتبه من غفلته وقسوته، فيكون هذا البلاء نعمة ورحمة انقذته من نار جنهم، فعاد وتاب وأناب ورجع للحق والصواب، لكن إذا أصر وبقي على ضلاله وغيه يموت فلا يلين قلبه إلا بعدما يقذف في النار فيعلم حينها أنه خسر خسراناً مبينا.

ولذا كان عمَل القلب أعظَمَ خطرًا من عمَل الجوارح، وأشدَّ أمرًا؛ فمَن أتى بعمَل الجوارح غافلًا عن عمَل القلب كان ضالًّا أو مقصِّرًا بحسب نوع تركه لعمل القلب، قال ابن القيم: "إنَّ لله على العبد عبوديتَين؛ عبوديةً باطِنة وعبوديَّة ظاهرة، فله على قلبه عبوديَّة، وعلى لسانه وجوارحِه عبودية؛ فقيامُه بصورة العبوديَّة الظَّاهرة مع تعرِّيه عن حقيقة العبوديَّة الباطِنة ممَّا لا يقرِّبه إلى ربِّه ولا يوجِب له الثَّواب

وقبول عمله؛ فإنَّ المقصود امتِحانُ القلوب وابتلاء السَّرائر، فعمل القلب هو رُوح العبوديَّة ولبُّها، فإذا خَلا عمَل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا رُوح". "بدائع الفوائد"

القلب ييبس إذا خلا من توحيد الله

قال ابن القيم : فكذلك القلب، إنما يَيبس إذا خلا من توحيد الله وحبه ومعرفته وذكره ودعائه، فتصيبه حرارة النفس، ونار الشهوات، فتمتنع أغصان الجوارح من الامتداد إذا مددتها، والانقياد إذا قُدتها، فلا تصلح بعدُ هي والشجرة إلا للنَّار (فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [الزمر:22]، فإذا كان القلب ممطورا بمطر الرحمة، كانت الأغصان لَيِّنة مُنقادة رطبة، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك، وأقبلت سريعة لينة وادعة، فجنيت منها من ثمار العبودية ما يحمله كل غصن من تلك الأغصان ومادتها من رطوبة القلب وريِّه، فالمادة تعمل عملها في القلب والجوارح، وإذا يبس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البِرّ ؛ لأن مادة القلب وحياته قد انقطعت منه فلم تنتشر في الجوارح، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية، ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تَخُصُّه، وطاعة مطلوبة منها، خلقت لأجلها وهيئت لها.

الناس ثلاثة أقسام في استعمال جوارحهم

والناس بعد ذلك ثلاثة أقسام:

أحدهما: من استعمل تلك الجوارح فيما خلقت له، وأريد منها، فهذا هو الذي تاجر الله بأربح التجارة، وباع نفسه لله بأربح البيع.

والصلاة وُضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعا لقيام القلب بها وهذا رجلٌ عرَف نعمة الله فيما خُلق له من الجوارح وما أنعم عليه من الآلاء، والنعم، فقام بعبوديته ظاهرا وباطنا واستعمل جوارحه في طاعة ربِّه، وحفظ نفسه وجوارحه عمَّا يُغضب ربه ويشينه عنده.

فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُرضِي اللهَ، ولا يَنظُرُ إلَّا إلى ما يحِبُّ اللهُ النَّظَرَ إليه، ولا يعمَلُ بيَدِه إلَّا ما يُرضي اللهَ، ولا يمشي إلَّا إلى ما يُرضي الله؛ فلما صدق مع الله واجتهد لإرضائه سَدَّدَه وأعانه، فلا يسعى إلَّا إلى ما فيه الخيرُ.

والثاني: من استعمل جوارحه فيما لم تُخلق له، بل حبسها على المخالفات والمعاصي، ولم يطلقها، فهذا هو الذي خابَ سعيه، وخسرت تجارته، وفاته رضا ربَّه عزَّ وجل عنه، وجَزيل ثوابه، وحصل على سخطه وأليم عقابه.

📝ما خلق الله هذه الجوارح لتعصيه، ما خلق سبحانه القلوب للعشق الحرام وحب الدنيا والدرهم والدينار، ولم يهبنا النظر لنبصر الحرام، ولم يهبنا السمع لنطرب بالفحش والغناء والنميمة وغيره من الحرام، ولم يهبنا القوام الجميل للاغواء والإغراء وإظهار المفاتن، ولم يهبنا القدمين لتسير في كل طريق إلا الطريق الموصل لرضاه ....

والثالث: مَن عطَّل جوارحه، وأماتها بالبطالة والجهالة، فهذا أيضا خاسر بائر أعظم خسارة من الذي قبله، فإن العبد إنما خُلق للعبادة والطاعة لا للبطالة.

📝والفرق بين الثاني والثالث أن الثالث قد لا يشغل جوارحه في المعاصي، لكنها عطلها عما خلقت له، أما الثاني فقد شغلها فيما فيه عطبه.

✉وأبغض الخلق إلى الله العبد البطَّال الذي لا في شغل الدنيا ولا في سعي الآخرة.

✉بل هو كلّ على الدنيا والدين، بل لو سعى للدنيا ولم يسع للآخرة كان مذموما مخذولا، وكيف إذا عطّل الأمرين، وإنَّ امرء يسعى لدنياه دائما، ويذهل عن أُخراه، لا شكَّ خاسر.

📣تمثيل لهذه الأصناف الثلاثة

✉فالرجل الأول، كرجل أُقطع أرضا واسعة، وأعين على عمارتها بآلات الحرث، والبذر وأعطي ما يكفيها لسقيها وحرثها، فحرثها وهيَّأها للزراعة، وبذر فيها من أنواع الغلات، وغرس فيها من أنواع الأشجار والفواكه المختلفة الألوان ثم أحاطها بحائط، ولم يهملها، بل أقام عليها الحرس، وحصنها من الفساد والمفسدين، وجعل يتعاهدها كل يوم فيُصلح ما فسد منه، ويغرس فيها عوض ما يبس، وينقي دغلها ويقطع شوكها، ويستعين بغلَّتها على عمارتها.

والثاني: بمنزلة رجل أخذ تلك الأرض، وجعلها مأوى السباع والهوام، وموضعا للجيف والأنتان، وجعلها معقلا يأوي إليه فيها كل مفسد ومؤذٍ ولصٍّ، وأخذ ما أعين به من حرثتها وبذارها وصلاحها، فصرفه وجعله معونة ومعيشة لمن فيها، من أهل الشرِّ والفساد.

والثالث: بمنزلة رجل عطَّلها وأهملها وأرسل الماء ضائعا في القفار والصحاري فقعد مذموما محسورا.

⇦فهذا مثال أهل اليقظة، وأهل الخيانة، وأهل الغفلة.

✉أهل اليقظة والغفلة الخيانة

فالأول: مثال أهل اليقظة، والاستعداد لما خلقوا له.

والثاني: مثال أهل الخيانة.

والثالث: مثال لأهل الغفلة.

فالأول: إذا تحرّك أو سَكَن، أو قام أو قعد، أو أكل، أو شرب، أو نام، أو لبس، أو نطق، أو سكت كان كلّه له لا عليه، وكان في ذكر، وطاعةٍ، وقربة، ومزيد.

والثاني: إذا فعل ذلك كان عليه لا له، وكان في طردٍ وإبعادٍ وخُسران.

والثالث: إذا فعل ذلك كان في غفلة وبطالةٍ وتفريطٍ.

فالأول: يتقلَّب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة والقربة.

والثاني: يتقلب في ذلك بحكم الخيانة والتعدِّي، فإن الله لم يملِّكه ما ملّكه ليستعين به على مخالفته، فهو جانٍ متعد خائن لله تعالى في نعمه عليه معاقبٌ على التنعُّم بها في غير طاعته.

والثالث: يتقلب في ذلك ويتناوله بحكم الغفلة والهوى ونهمة النفس وطبعها، لم يتمتع بذلك ابتغاء رضوان الله تعالى والتقرب إليه، فهذا خسرانه بيِّن واضح، إذ عطّل أوقات عمره التي لا قيمة لها عن أفضل الأرباح والتجارات.

✉فدعا الله عباده المؤمنين الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس، رحمة منه بهم، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة؛ لينال العبد من كلِّ قول وفعل وحركة وسكون حظه من عطاياه.

📣ما هو سرّ الصلاة

✉وكان سرُّ الصلاة ولُبها إقبال القلب فيها على الله، وحضوره بكلِّيته بين يديه، فإذا لم يقبل عليه واشتغل بغيره ولهى بحديث نفسه، كان بمنزلة وافد وفد إلى باب الملك معتذرا من خطاياه وزلله مستمطرا سحائب جوده وكرمه ورحمته، مستطعما له ما يقيت قلبه، ليقوى به على القيام في خدمته، فلما وصل إلى باب الملك، ولم يبق إلا مناجته له، التفت عن الملك وزاغ عنه يمينا وشمالا، أو ولاه ظهره، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك، وأقلّه عنده قدرا عليه، فآثره عليه، وصيَّره قبلة قلبه، ومحلَّ توجهه، وموضع سرِّه، وبعث غلمانه وخدمه ليقفوا في خدم طاعة الملك عوضا عنه ويعتذروا عنه، وينوبوا عنه في الخدمة، والملك يشاهد ذلك ويرى حاله مع هذا، فكرم الملك وجوده وسعة برّه وإحسانه تأبى أن يصرف عنه تلك الخدم والأتباع، فيصيبه من رحمته وإحسانه ؛ لكن فرق بين قسمة الغنائم على أهل السُّهمان من الغانمين، وبين الرضَّخ لمن لا سهم له: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)[الأحقاف:19]، والله سبحانه وتعالى خلق هذا النوع الإنساني لنفسه واختصه له، وخلق كل شيء له، ومن أجله كما في الأثر الإلهي: " ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كلِّ شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عمَّا خلقتك له ".

وفي أثر آخر: " ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كلّ شيء، وإن فُتَّك فاتك كلّ شيء، وأنا أحب إليك من كلّ شيء".

✉وجعل سبحانه وتعالى الصلاة سببا موصلا إلى قُربه، ومناجاته، ومحبته والأنس به.

📣ما بين الصلوات الخمسة تحدث الغفلة

✉وما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة والجفوة والقسوة، والإعراض والزَّلات، والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحّيه عن قربه، فيصير بذلك كأنه أجنبيا من عبوديته، ليس من جملة العبيد، وربما ألقى بيده إلى أسر العدو له فأسره، وغلَّه، وقيَّده، وحبسه في سجن نفسه وهواه.

✉فحظه ضيق الصدر، ومعالجة الهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك.

✉فاقتضت رحمة ربه الرحيم الودود أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة، مختلفة الأجزاء، والحالات بحسب اختلاف الأحداث التي كانت من العبد، وبحسب شدَّة حاجته إلى نصيبه من كل خير من أجزاء تلك العبودية.

الكلام عن الوضوء

✉فبالوضوء يتطَّهر من الأوساخ، ويُقدم على ربِّه متطهرا، والوضوء له ظاهر وباطن: فظاهره: طهارة البدن، وأعضاء العبادة.

✉وباطنه وسرّه: طهارة القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي وأدرانه بالتوبة؛ ولهذا يقرن تعالى بين التوبة والطهارة في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة :222] وشرع النبي -ﷺ- للمتطهِّر أن يقول بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ثم يقول: " اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ الْمُتَطَهِّرِينَ ".

قال-ﷺ-: "إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المسْلِمُ، أَوِ المؤْمِنُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِن وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بعَيْنَيْهِ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِن يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، حتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ" صحيح مسلم.

✉فكمَّل له مراتب العبودية والطهارة، باطنا وظاهرا، فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة.

✉فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله عز وجل، والوقوف بين يديه، فلما طهر ظاهرا وباطنا، أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه وبذلك يخلص من الإباق.

✉وبمجيئه إلى داره، ومحل عبوديته يصير من جملة خدمه، ولهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة الواجبة عند قوم والمستحبة عند آخرين.

من تمام العبودية الذهاب للمسجد

✉والعبد في حال غفلته كالآبق من ربه، قد عطّل جوارحه وقلبه عن الخدمة التي خُلق لها فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقه، فإذا وقف بين يديه موقف التذلل والانكسار، فقد استدعى عطف سيِّده عليه، وإقباله عليه بعد الإعراض عنه.